لاجئ فلسطيني-سوري بحالة انفصام

خاتمة بقلم دانيال بيهار

غياث المدهون هو شاعر فلسطينيّ ترعرع في سوريا ويسكن اليوم في برلين بعد أن انتقل إليها من ستوكهولم. وُلِد عام 1979 لأب فلسطيني وأم سورية في اليرموك، وهو مخيم لاجئين فلسطينيين تحوّل مع الوقت إلى حي في ضواحي دمشق. يعود أصل عائلة المدهون إلى مدينة المجدل التي كانت تقع بجانب عسقلان (أشكلون اليوم). في حرب 48، طرد أبناء العائلة من المجدل وأصبحوا لاجئين في غزة. وبعد حرب حزيران 67، أرغم الجيش الإسرائيلي والده على المغادرة إلى مصر، ومن هناك انتقل إلى سوريا حيث ولد غياث وكبر. بعد أن درس الأدب العربي في جامعة دمشق، أقام "بيت القصيد" في مركز المدينة عام 2008، بالتعاون مع الشاعر الكردي-السوري لقمان ديركي. لفترة قصيرة من الزمن، شكّل "بيت القصيد" الحصن الأبرز لحرية التعبير في دمشق، حيث قصده أبناء المكان، ومن بينهم الفنانين والأدباء؛ وكذلك الضيوف غير السوريين وغير العرب مثل الصحافيين وطلاب الجامعات والمثقفين. كان المكان بمثابة منصة حرة لشعر الافنجارد بأسلوب السبوكن-وورد، فن الأداء، الستاند-أب اللاذع والمحادثات المرتجلة بين المؤدين والجمهور.

ما زالت روح العبث والارتجال التي سادت في المكان تنبض في شعر المدهون حتى اليوم. بدأ غياث بكتابة الشعر في الحقل الأدبي الصغير والمشحون لبوهيميا دمشق، وتظهر بعض القصائد من تلك الفترة في ديوانه الأول **كلما اتسعت المدينة، ضاقت غرفتي** الصادر عام 2008. كانت هذه البيئة البوهيمية مكتظّةً خانقة وخضعت للرقابة المشددة، وعليه لم توفر ظروف نموّ مُواتية للمدهون الذي كان يطمح لكتابة منفتحة تخترق الجدران، والحيّز الطبيعي لهكذا كتابة كان حيّز النثر المفتوح. اعتبر نشاطه المناهض للمؤسسة تآمرًا سياسيًا، وفي 2008 لجأ الى السويد لكي يفلت من السجن. اللجوء إلى السويد أدى إلى انقلاب داخلي وأسلوبي في شعر المدهون، يمكننا تمييزه في الكلمة المفتاحية "شيزوفرينيا" أو "انفصام شخصية" وهو عنوان إحدى القصائد المركزية في هذا الكتاب. فقد تقرّب، من جهة، من الثقافة الأوروبية التي عاش فيها، ومن جهة أخرى، رفض بشدة إمكانية الانغراس والنمو من جديد كإنسان وكفنان أوروبي. تجسد التقرب من أوروبا في استعداده لمخالفة قواعد الشعر العربي "المنظوم" بشكل فظ، إن كان من حيث الشكل الجمالي (الوزن، القافية، المجاز) أو من حيث المضامين التي تناولها في شعره (كالجنس وسياسة الهويات والتحديثات العلمية، وهي ليست مواضيع شائعة في الشعر العربي المعاصر). تعلم المدهون اللغة السويدية، وحاول الكتابة بها، بل وقصد أن تكون كتاباته في اللغة العربية قابلة للترجمة بسلاسة.

ديوانه الأول من تلك الفترة، **طلب لجوء** الصادر عام 2010، ترجم تقريبًا على الفور إلى السويدية وحاز جائزةً أدبيَّة هي الأولى من كثيرة ستأتي بعدها. أما ديوانه **إلى دمشق** الصادر عام 2014، والذي أنتج بالتعاون مع الشاعرة السويدية ميري سيلكبيرغ (Silkeberg)، فقد حظي بأصداء اعلامية واسعة، حتّى أنه أعِدّ كدراما إذاعية

في 2015 على الراديو السويدي. يشمل هذا الكتاب بعض المختارات من ديوان **لا أستطيع الحضور** الصادر عام 2014، الذي ترجم إلى السويديّة وكانت ترجمته من بين الكتب الأكثر مبيعًا. كما ترجمت مجموعات من أشعاره إلى الألمانية، الايطالية، الانجليزية، السلوفينية، الدنماركية، اليونانية، الفرنسية، الاسبانية، الألبانية والكرواتية.

وَلَد تعاون المدهون مع سيلكبيرغ هجينًا فنيًا سُمِّيَ فيلم-شعر كتبت لصالحه قصيدة "نحن" التي تختتم هذا الكتاب. يلصق جانر التهجين هذا قراءة نص بالعربية وعناوين فرعية بالأجنبية على مناظر مسجلة لمدن خربة ذاقت فظائع الحرب مثل اوشفيتس وهيروشيما وهانوي وغزة.[1] كما ألّف قصائد مستكتبة لصالح كتب فنية دمجت بين الصورة البصرية وفن رسم الخرائط والنصوص الشعرية، وكُرست لمدن أوروبية منها ايفيان وأنتويرب وإيبر. وتعاون مع ملحنين سويديين معاصرين و"أعارهم" قصائده للعروض الموسيقية وغيرها. هذا النشاط واسع النطاق، إن دل على شيء، فهو يدل على أن التواصل مع لغات أجنبية وفنون متنوعة أعاد تعريف ابداع المدهون كشعر يشكل فيه تعدد اللغات والمجالات ركيزة بارزة. ولا شك بأن هذه ظاهرة شاذة في إطار التقاليد التي تقدس حصرية اللغة العربية وسُمُوّ الشعر كسيّد الفنون. العديد من القصائد التي جمعت في ديوان **ادرينالين** الصادر عام 2017 وفي ديوان **لقد احضرت لك يدًا مقطوعة** الصادر عام 2024، والتي ترجمت في هذا الكتاب، هي قصائد مستكتبة كتبت لصالح فعاليات ثقافية أو كتب فنية.

الأساس الشيزوفريني في التقلبات التي مر بها المدهون يكمن بالحركة المضادة الحادة التي استيقظت بداخله، إلى جانب التقرب من أوروبا عامةً وإلى النظام السليم لدولة الرفاه الاسكندنافية على وجه الخصوص. في كتابه **Man's Rage For Chaos**، يعرف موريس بيكهام (Peckham) علاقة التوق (أو السخط) الإنسانية تجاه الفوضى. وفعلا، فإن خروج المدهون من دولة مفكّكة لا تؤدي مسؤولياتها لم يدفعه إلى الحضن المواسي للاشتراكية-الديمقراطية المدارة كما يجب، بل العكس. فمنظوره حول النظام الأوروبي يكشف عن الوحشية الإنسانية التي ينطوي عليها بمستويات أخرى، وحشية مبطنة قد تكون أكثر ضراوة بسبب تخفيها. لجوئه أيقظ داخله غريزة فوضوية موجهة ضد النظام الأوروبي اللائق، وجذبه للانشغال، بما يشبه المقارنة الغريزية، بالمذابح وجرائم الحرب، بالاستعمار الغربي، بالمحرقة اليهودية وبالقتل الممنهج الذي يبدو وكأنه يتم بشكل عرضي ودون توقف من كافة الاتجاهات. كلما تقرب أكثر من الغرب، كلما شعر بأنه أكثر عروبة، وكلما تمرد على التنميط المؤدب والمهين الذي يصنفه على أنه "سوري" أو "فلسطيني" وعلى نزع الانسانية الذي تفرضه هذه التصنيفات. بشكل معاكس، غضبه على ما يخفيه النظام المتحضر هو الذي يشعل في شعره فورات الشهوانية البرية، ويمنح صوته جسدًا واضحًا وحديثًا مباشرًا وانسانيًا بدرجة كبيرة. يجسد شعر المدهون مشاعر التسامي المنبثقة عن تحرر الهوية الشخصية عقب الربيع العربي، والذي وإن لم ينجح كثورة سياسية إلا أنه ترك بصمته على الذاكرة الجماعية كتكتل لمرة واحدة للغضب السياسي، وتحليق رؤيويّ ومُسكِر على حافة الهاوية، وتحقيق للذات دون روادع بميزات احتفالية وملونة. حمل الربيع العربي وتداعياته معان شخصية في حياة المدهون، وليس من المستغرب حضور

[1] بالامكان ايجاد روابط لهذه الفيديوهات القصيرة على موقع الشاعر: https://www.ghayathalmadhoun.com/poetry-films

الموت وفظائع الحرب في قصائده، فقد قتل شقيقه غسان جراء اعتداءات جيش النظام السوري عام 2016، ولم يتم العثور على جثته.

الأدرينالين المكنوز في فقراته المكتظة والإيقاعية هو نتيجة عرضية للتوترات والفصامات غير القابلة للرتق في شخصيته المبدعة. ويتجمع هذا، في نهاية المطاف، في الاسقاط الايروتيكي على شخصية الممتنعة، الحبيبة المنشودة، وهي- مثل المآسي التاريخية التي تحل بالسوريين والفلسطينيين أينما كانوا- لانهائية، أعمق من البحث ولا يمكن استنفاذها أو التعبير عنها. وإذا كانت عشيقات الشاعر السوري الكبير نزار قباني- الذي تناول شعره على مختلف فتراته سؤال القومية العربية- كن دائمًا من أصل عربي، فإن الممتنعة-العشيقة في شعر المدهون هي دومًا اوروبية بيضاء. وهي تجسد، في إطار اللعبة الايروتيكية، علاقات القوة، العدائية واصطناع السذاجة، وتبادل الأدوار بين الضحية والجلاد الذي تقوم عليه العلاقات بين الشرق والغرب. حروبات الشرق الأوسط الحاضرة في وابل التصورات في الاعلام ومن خلال المقاربة مع ساحات المعارك المدجنة والمليئة بالسياح في قلب أوروبا- تشعل رغبته في جسد المرأة. أمام هذه الايروتيكية التي ترافق الحرب تبدو الأعراف الجمالية بالية وبأنه لا بد من ثورة في الشعر العربي. الغرائزية الجلية تسرّع ترجمة النساء من جهة، والمأساة من جهة اخرى، الى نص يتضح بأنه حقل قوة تجري فيه عمليات فطرية ومتقطّبة. يبين نص المدهون بالكلمات غياب القدرة على تصوير المرأة، أو المأساة العامة، دون الانزلاق إلى الجنون والهوس، ودون الوقوع في التناقض الذاتي السخيف أو السطحية العاطفية. المدهون هو شاعر حب، ابن القرن الواحد والعشرين، شاعر عربي عالمي يعيش في عصر الخليط الما بعد قومي، كواقع لا رجعة منه. خلافًا للشعراء الذين يحنّون لهالة الكلمة المكتوبة التي تُمرر همسًا بصوت خافت، المدهون هو فنان أدائي بشكل علني، يتقن العلاقات الإنسانية والعلاقات العامة، ويشارك بشكل دائم بالمهرجانات والنشاطات الثقافية، يعيش من شعره بشكل جيد ويصون صورته في الإعلام بشكلٍ مثير للانطباع.

تعدُّد مجالات الأصل، وكون المدهون يأخذ الترجمة بعين الاعتبار خلال عملية إنتاجه، تسهل ترجمة قصائده إلى العبرية. مجموعة التصورات والمجازات لديه مستقاة في أحيان كثيرة من لغة مرجعية بصرية تضع العربية على مستوى واحد مع بقية لغات العالم: "أنا أغرقُ فيك كما يغرقُ السوريون في البحار"، لا حاجة هنا إلى براعة عالية لنقل معنى التشبيه. المدهون نفسه يتأمل تشبيهاته وانتقاليّتها ويتساءل، بشكل ميتا-شعريّ، كيف أوصلته حياته إلى حيث تفرض التشبيهات نفسها على شعره. نصوصه مليئة بأسماء ومصطلحات لا حاجة لترجمتها: TNT, GPS, OCD- والتي تظهر في النص الأصلي بأحرف انجليزية وتقدم كهدية للمترجم. وفعلا، فقد اخترنا في هذه المجموعة إبقاء الأحرف اللاتينية كما هي، حفاظًا على أعجميّتها في الأصل. في المقابل، فيتامين د، الموتيف الذي يشير إلى دفء الشمس الذي ينقص شعره في أوروبا، "تُرجم" الى العبرية لأن حرف D يظهر في الأصل كحرف الدال بالعربية.

خلال عملنا المشترك في طاقم الترجمة، اتضح لنا بأن بساطة الكلام لدى المدهون تضعنا أمام تحديات غير بسيطة. فقد قاومنا في عدة حالات الوقوع في اغراء تبديل الكلام السلس المبني بدقة محسوبة بالعربية الفصحى، بالمحكية

الإسرائيلية التي تتطلب جهدًا أقل بكثير. هكذا مثلا، في القصيدة المهداة لحنة آرندت المعنونة بالعربية "يعني"، فكرنا في البداية الحفاظ على التعبير العربي بأحرف عبرية- لأن العبرية، وكما هو معروف، قد تبنته- لكن سرعان ما أدركنا بأن هذا الخيار يولد تشويشًا في المعنى لجهة العامية المتدنية وممكن أن يؤدي الى تفسير الكلمة بمعنى "تقريبا"، وهو ما لا يتسق مع روح القصيدة ومخاطبتها الجدية للفيلسوفة اليهودية-الألمانية. لهذا، فقد اخترنا ترجمة مليئة أكثر وجعلنا عنوان القصيدة "كلومار" (أي "يعني" بالعبرية). هذا التخبط الصغير يدل بأن الخيار البعيد "المدجن"، الذي يفضل العبرنة على النسخ الحرفي يكون أحيانا أكثر اخلاصًا للأصل. وليحكم القراء والقارئات اذا بقيت هناك هفوات وقعنا فيها في إغراء المحكية العبرية الراهنة.

المدهون وكأنه يستدعي تحليلا مغلوطًا لترميز العربية الفصحى العالي بينما يوجه الى ترميز خفي من العامية. في قصيدة "دمشق"، المأخوذة من ديوان **لا أستطيع الحضور**، يتعجب المنفي في أوروبا من شوقه الشديد إلى تلوّث الهواء في دمشق وحنينه الى دخان السيارات في المدينة وإلى "أزمة المواصلات"، والتي تشير إلى الازدحام المروري بالفلسطينية المحكية. من الواضح بأن الترجمة الحرفية للتعبير "أزمة مواصلات" لم تكن لتُصِب قصد المؤلف. مع ذلك، ففي اللغة المحكيّة تكفي كلمة "أزمة"، لذلك فإن التعبير الكامل، مع المضاف إليه، يجمّل ويصقل المحكية، وبكلمات أخرى، يترجمها إلى ترميز أعلى. عملنا المشترك على الترجمة ساعدنا في تفادي سوء الفهم المحتمل وقوعه في حالات كهذه، حيث استخدام العربية الفصحى بشكل مصقول يشوّش وضوح المرموز إليه بالعربية المحكية.

التحاورية القائمة في أساس قصائد المدهون أثرَت الحوار بيننا، كمترجم ومحررة ترجمة، ومنعت الخلافات على الأسلوب والتفسير ودلالات التعابير الصعبة. شعر غيّاث المدهون هو شعرٌ مشحون بطاقة الكلام، يشفر الكلام الحي داخل الكتابة ويدعو المترجمين للرجوع إليه عند الترجمة. يقتضي شعره الولوج داخل تيارات وسائط فنية مختلفة، كأداءه على منصة أو عرضه بصريًا وسمعيًا، ودخول مجال الدائرية الديناميكية. يقول يهودا شنهاف-شهرباني عن هذا النوع من الكتابة بأنها تقدم نموذجًا لنظرية معرفة سياسية مغايرة، "تخلط الفواعل والنصوص والعناصر والأفكار والأيديولوجيات"[2]، تفكك وتقاطع من جديد بين الهويات الشخصية والجندرية والاجتماعية والسياسية. وعليه، بالإمكان القول بأن شعر المدهون يناسب، كقفاز لليد، نموذج الترجمة ثنائي اللغة لسلسلة مكتوب.

[2] داخل: "مشروع مكتوب يتيح أعمالا من العالم العربي للقارىء الإسرائيلي"، تقرير لتوم أديسون في صحيفة معاريف بتاريخ 19.11.2021.